محمد رسول الله

والذين معه

للأستاذ محمود شلبي

هل أتى على العرب حين من من الدهر لم يكونوا شيئا مذكوراً

نعم .. وقد كان ذلك قبل أن يولد فيهم محمد ﷺ .

لم يكونوا شيئا يستحق الذكر مجموعة من الرعاة الحفاة ، لا يعلمون شيئا ، ولا يستطيعون شيئا ، ولا شيء يربطهم ، ولا أمل لهم فى شيء ، ولا ماضى لهم يرجعون إليه ، ولا حاضر لهم يتنافسون فيه ، وإنما كل فرد منهم يفكر فى التهام أخيه ، تماما كالأسماك فى البحار ، يأكل كبيرها صغيرها !!

فما أن تأذن ربك فيهم بمولد محمد ﷺ ، وما أن بعث فيهم هذا المولود بعد أربعين عاما من مولده ، حتى تحول أمرهم من الأرض إلى السماء ، ومن الدنيا إلى العلياء ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضياع إلى الفوز ، ومن الأمية إلى العلم ، ومن الكفر إلى الايمان ، ومن لا شيء إلى كل شيء .

ماذا هنالك ؟ وأى شيء غير أحوال العرب بعد ذاك ؟

هل هو مولده ﷺ ؟

كلا ... فما كان مولده — فى حد ذاته — بالشيء الذى يستطيع وحده أن يغير مصير العرب .

فقد لبث فيهم ﷺ ، أربعين عاما بعد مولده ، فما استطاع أن يؤثر فيهم ، وما استطاعوا لأنفسهم نفعا .

إذا ماذا هناك ؟

إنها الرسالة التى غيرت ، وهى التى فعلت الأفاعيل . ومن يومها ... من تلك اللحظة التى نزل فيها جبريل عليه السلام ، فغط محمدا ﷺ ثم أرسله ، ثم غطه ثم أرسله ثم غطه ثم أرسله ثم صاح فيه : إقرأ .. من تلك اللحظة تغير العرب

وتغيرت الأرض ، وتغير التاريخ ، وما زال يتغير ويتطور ، وسيبقى متغيرا متطورا ، من أجلها .. من أجل رسالة ذلك الرسول ، ذلك الذى نسميه الاسلام .

واقرأ معى ما أنزله الله رب العالمين ، تبيانا لذلك الأمر العظيم ، والنبأ الخطير ، نبأ محمد الأمين :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه . فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

محمد ؟؟ !

محمد رسوله إنسان ككل الناس بشر ككل البشر :

إذا ماذا هناك ميزة عن الخلق وجعله إماما للأولين والآخرين ، فى هذه الدنيا وهناك فى يوم الدين !

إنها الرسالة .. الرسالة هى التى رفعت مقامه ، وجعلت له شأن فوق كل شأن .

وماذا فى تلك الرسالة ؟

ما هو ذلك الأمر الذى تميزت به عن سائر الرسالات ، حتى بذتهن جميعهن ؟ :

أنها جامعة مانعة ، تبلغ الزمان طولا ، والسماوات عرضا .

أوعت ما سلف من الرسالات ، وزادت عليها ما لم يأت فيها .

ورفعت عن الناس الأغلال التى كانت فى أعناقهم ، وأطلقتهم أحرارا يهتفون من أعماق أفئدتهم :

لا إله إلا الله .

لاعبودية إلا لله

أى حرية أعظم ، وأى انطلاق أوسع من ذلك الانطلاق ؟

رسالة تصلك بربك بغير وسائط أو علائق ، تدمر الحجب ، تحطم السدود ، تطلق العقل ، تقوى البدن ، تشعل الروح ، تذهب الحزن ، تشرح الصدر ، ترحم اليتيم ، تكسر اللئيم ، تحكم الكريم ، تزحزح الباطل بعيدا بعيدا حتى يستقيم .

أهذا كله فى تلك الرساله ؟

بل ذلك كله بعض بعض ما فى تلك الرساله .

ولعلك تدرك الآن لماذا جاء ذكر « رسول الله » مقارنا لكلمة « محمد » .

إن محمدا وحده لا يستطيع أن يفعل شيئا ، ولن يستطيع ، ولكن « محمد رسول الله » يستطيع أن يغير أحوال الناس ، وأن يفتح قلوبهم .

ذلك كله بإذن الله ، لأنه أصبح رسولا لله .

لأن الله استعمله لنفسه ، وصنعه على عينه ، ثم قال له « بلغ ما أنزل اليك من ربك ... »

وما من أحد يستطيع أن يكتب عن رسول الله حق كتابته .

وما كتبه الناس عن النبي ﷺ ، وما يكتبون ، وما سوف يكتبون ، إن هو إلا أوهامهم ، وظنونهم وخيالهم ، الذي يتخيلون في رسول الله .

أما محمد ، أما رسول الله ، أما حقيقته ، أما سره ، أما عجائبه وغرائبه ، أما مقامه ، أما أنواره ، فما أولئك يستطيعون فيها شيئا .

« إنما الذين يكتبون عن رسول الله ، قوم بهرتهم الأنوار ، واستعجمت عليهم الأسرار ، فراحوا يعبرون ويشيرون ويمتدحون ويتخيلون ، ولهم المعذرة ... فهو محمد ... رسول الله ! !

وماذا يستطيع الكاتب في محمد أن يقول ؟ .

أيقول هو عظيم ؟

نعم ... هو عظيم ... ولكن عظمة محمد شيء فوق عظمة الناس جميعاً .

أيقول هو عبقري ؟

نعم ... هو عبقري حقاً ... ولكن عبقرية محمد فوق عبقريات الناس جميعا .. بل إن محمدا أخرج إلى البشرية عباقرة مازالت تتغنى بهم فما يكون إذا امتنع العباقرة إلا شيئا فوق هؤلاء جميعا ،

أيقول إنه بطل ؟

نعم .. هو بطل حقا .. ولكن بطولة محمد شيء فوق بطولات الناس . وهل في الناس من يستطيع أن يقاتل وحده إثني عشر ألفا من الجنود ؟

لا ولن يوجد في الناس من يقاتل اثني عشر ألفا وحده .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم قاتلهم وحده .

يوم حنين . . اذ فر الجميع عنه ﷺ ، فما أن رأى رسول الله ﷺ نفسه وحده فى الميدان ، حتى اندفع ببغلته الى العدو — وهو يومئذ اثنى عشر ألفا — وجعل يردد :

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

من فى الناس يستطيع هذا ؟

لا أحد . . إلا محمداً !! .

إنها إذاً فوق البطولة التى اصطلح الناس على تسميتها بالبطولة .

فإذا كان محمد فوق العظمة ، وفوق العبقرية ، وفوق البطولة ، فما يكون إذاً ؟

يكون كما أراده الله ، لأن الله وحده هو الذى يعلم مقامه ، يكون « محمد رسول الله » .

أرأيت كيف وصف رب العالمين محمدا صلى الله عليه وسلم ، أحكم وأدق وصف ، فجاء معجزا للناس اجمعين ؟

انه رسول الله ، بل خير رسول لله ، وخير ولد لآدم ، فان بهرتكم أنواره أيها الناس ، وإن أعجزكم وصفه ، وأن قصرت أفهامكم عن إدراك شمول عظمته ، فتذكروا أنه رسول الله ، أن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وصنعه على عينه فأحسن صنعته ، وأنزل فى قلبه من نوره ورحمته ، ما جعله رحمة للعالمين .

فعلى الذين كتبوا عن محمد ﷺ أن يعلموا أنهم أعجز من أن يكتبوا عن رسول الله ، وليعلموا أنهم لا يكتبون شيئا ، وإنما هم يظنون .

وليس ذلك بضارهم شيئا ، إنهم يجتهدون قدر طاقتهم ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وإن عجزهم عن إدراك شخصيته ﷺ ، دليل نفاق لهم لا دليل شنار .

لأن المؤمن يعجز عن فهم الله وما يطعن ذلك فى إيمانه .

كذلك الكاتب عن محمد يعجز عن إدراكه ، وما يطعن ذلك فى عظمة كتابته .

محمود شلبى